14. الفصل الثالث عشر

أبرز القادة في عصر الدولة المملوكية

ملخص العصر المملوكي :

بعد وفاة الملك الصالح وانتهاء معركة المنصورة ثم مقتل الملك توران شاه ابن الملك الصالح لم يجرؤ أحد من أمراء المماليك علي أن يعلن نفسه سلطاناً نظراً لأن شرعية الحكم في ذلك الوقت كانت لسلاطين بني أيوب وشرعية الحكم لابد أن تأتي من الخليفة العباسي في ذلك الوقت ، فلا يمكن آنذاك أن يتولي أي شخص مقاليد السلطة في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلا بتقليد من الخليفة شخصياً وحتي وإن كان هذا إجراء رمزي إلا أنه ضروري لإضفاء الشرعية ، وحاجة المماليك تحديداً إلي هذه الشرعية تفوق حاجة غيرهم لأنهم يعرفون جيداً أنهم عبيد منذ البداية ولا تصح لهم ولاية ، لذلك قرروا بشكل مبدئي أن تبقي السلطة في الأسرة الأيوبية مؤقتاً لحين حل هذه المعضلة ، فاتفقوا علي أن تتولي شجرة الدر زوجة الملك الصالح مقاليد السلطة إلي أن أرسل لهم الخليفة العباسي خطاباً ينكر عليهم تولية إمرأة الحكم فكان هذا اعتراف ضمني من الخليفة بانتقال السلطة لأحد أمراء المماليك (- وقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم – وهو الأمير عز الدين أيبك – السلطنة ولقب بالملك المعز وتزوج من شجرة الدر[321] التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يوماً)[322] ، وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسي حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات ، ولكن الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع ودارت معركة شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك[323] ونتيجة لهذه المعركة قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة ، وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر ، وأحس الخليفة العباسي المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلي قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي علي الأبواب فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولاً إلي كل منهم كمبعوث للسلام (- ونجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين علي أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك ، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت الأيوبي وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره -)[324] وبهذا تم إضافة الشرعية علي الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرةً

---

[321] وهذا يذكرنا بالعصر الفرعوني عندما ينتهي نسل الذكور من الأسرة الفرعونية يقوم أحد القادة بالزواج من إحدي أميرات الأسرة ويؤسس أسرة جديدة حتي يجري دماء الفراعنة في نسله ، فشرعية الحكم في عهد الفراعنة مرتبطة بالدماء الملكية ، ولكن مشكلة المماليك أن ليس لديهم دماء ملكية فالجميع متساوون في النشأة والبيئة

[322] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 115

[323] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 116

[324] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 116

وتولي سلاطين المماليك حكم مصر لمدة حوالي 267 سنة (- وقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلي مماليك بحرية استمرت من 650 هـ / 1252 م إلي 784 هـ / 1382 م - - - ثم تلتها المماليك البرجية أو الشركسية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر علي يد السلطان سليم الأول في 932 هـ / 1517 م)[325] ، (وتولي سلطنة مصر 27 ممن المماليك البحرية و 28 من المماليك البرجية)[326] وبالتالي يكون مجموع ملوك وسلاطين المماليك 55 سلطاناً مملوكياً ، وفي عهد الظاهر بيبرس تم انتقال الخلافة العباسية إلي مصر لتصبح مصر دار خلافة عباسية مما أضفي شرعية قوية لسلاطين المماليك الذين توسعوا في ملكهم ليشمل معظم أنحاء العالم الإسلامي كالحجاز والشام ومصر وغيرها ، ولكن الشرعية الحقيقية لهؤلاء السلاطين كانت في تعاطف الأمة كلها معهم وحبهم لهم وتقديرهم الكبير لدورهم الرائع في القضاء علي المغول (التتار) وتطهير الأمة الإسلامية منهم ومن بقايا الصليبيين المعتدين وكانت هذه المرحلة في تاريخ المماليك هي التي بالفعل أضفت الشرعية علي حكمهم وكانت قد صدرت قبل ذلك فتوى بعدم شرعية حكمهم لكونهم عبيد تم شرائهم ولا جدوى من شراء أنفسهم بأموالهم لأنهم وما يملكون ملكاً للدولة ، ولكن بعد تصديهم للتتار وقهرهم للأعداء نالوا إعجاب الجميع ومبايعتهم لأنهم حافظوا علي الدولة الإسلامية[327] من خطر التتار وكل هذا بفضل الله سبحانه وتعالي ورحمته ، ولم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح (- ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضعفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس الوقت معاني صلات أخري كان لها شأن كبير في حياتهم - - - فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتاً احتراماً لما أُخِذ عليهم من مواثيق وأيمان إلي أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمراءهم ويتفقوا علي تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة علي أقرب الأمراء إلي السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلي السلطان السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك -)[328] ولم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله ولكنهم كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلي مدينة بعيدة عن العاصمة معزز مكرم لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده ، وعلي الرغم من نجاح بعض سلاطين المماليك في توريث الحكم لأولادهم وذلك بإعدادهم إعداد خاص لذلك إلا أن هذه المحاولات لم تكن القاعدة العامة في انتقال السلطة في عصر المماليك بشكل عام وجدير بالذكر أن أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده هو السلطان المنصور قلاوون ، وفيما يلي رأي الدكتور محمود الحويري في المماليك والدكتور محمود الحويري أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب بسوهاج وهو مؤلف كتاب رائع اسمه "مصر في

---

[325] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 93

[326] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة 94

[327] لقد كان المماليك في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها علي مستوي العالم في الوقت الذي كانت الأمة الإسلامية في أمس الحاجة لقوة تدرأ عنها الأخطار المحدقة بها من كل جانب

[328] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 119

العصور الوسطي الأوضاع السياسية والحضارية " وهو من المراجع التي نقلت منها الكثير من الفقرات والعبارات والمعلومات التي تصف أحوال مصر في تلك الفترات من تاريخها وأوردتها في هذا الكتاب بكثرة ، وقد كتب عن المماليك ما يلي : (- أنهم جاءوا إلي مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتي وأصول عرقية متنوعة ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفالاً صغاراً انقطعت حبالهم نهائياً بمواطنهم الأصلية وتربوا تربية إسلامية وتعلموا اللغة العربية ولم يعودوا يعرفون لهم وطناً غير مصر واستقروا فيها للأبد ومهما قيل في أن المماليك أجانب عن مصر وأنهم ولدوا في أرض غير إسلامية ، أو أنهم يرجعون في أصولهم إلي دماء غير مصرية فإن هذا القول مردود عليه ، لأن الانتماء الحقيقي للوطن يقوم أساساً علي خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه ، بغض النظر عن الجنس الذي يعيش فوق أرضه أو الأصول التي تحدر منها ، وهي حقيقة أثبتها التاريخ علي مداه الطويل ، فليس ثمة وطن يجري في عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة ، ومصر بموقعها الجغرافي وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناساً عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما ، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها ، فصارت مصرية ، وهذه الحقيقة تنطبق علي المماليك في مصر ، فهم الذين حموا شعبها وحاربوا باسمه وحافظوا علي استقلاله ضد الغزاة وينبغي ألا ننسي أن المماليك منذ ظهورهم علي مسرح الأحداث في مصر ومنطقة الشرق الأوسط قد ارتبطوا بالشرعية التي منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماتها والمدافعين عنها وعن الإسلام ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر -)[329] ، انتهي كلام الدكتور الحويري وهو رأي مهم رأيت أن أذكره لنقترب أكثر من المماليك ونحاول الإلمام بتاريخهم ، وقد (اهتم سلاطين المماليك بالزراعة باعتبارها مصدر الثروة الأول الذي عاش عليه المصريون في مختلف العصور ، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور حرصاً علي وصول المياه إلي أراضي لم تصل إليها من قبل مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات)330 ، (وإلي جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا علي تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها ، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت علي درجة كبيرة من الجودة والإتقان ، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات - - وبرع المصريون في الصناعات الجلدية - - والمصنوعات المعدنية ، وازدهرت صناعة الزجاج ، وكذلك صناعة الخزف وخضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم)331 ، (أما التجارة في عصر المماليك فقد لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية ، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وثرائها)332 وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب ومن أظرف الأمثلة علي ذلك أن السلطان المنصور قلاوون

---

[329] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 240

[330] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 288

[331] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 290

[332] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 290

بعث إلي المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء (ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع علي ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، - - - وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط فبنت الفنادق ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم)333 ، (وبلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء[334] والكتاب من كل فن وضرب وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالد ، وبلاطها المستنير ، حامي الآداب والعلوم ، ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة ، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والفنون المعروفة يومئذ ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل وكتبت في عدة موسوعات جليلة ، مازالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي)335 وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة 1332 م صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " وأحمد ابن فضل الله العمري المتوفي سنة 1348 م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وأبو العباس القلقشندى المتوفي سنة 1418 م صاحب كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء (وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها علي حقيقة محتوياتها)336 ومن الأمثلة أيضاً لعلماء ذلك العصر المؤرخ الشهير تقي الدين المقريزي صاحب كتاب " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " الشهير بخطط المقريزي والحافظ ابن حجر العسقلانى وشمس الدين السخاوي والحافظ جلال الدين السيوطي وغيرهم من العلماء :(فكانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية وإلحاق الضرر ببلاد الشام علي أيدي الصليبيين والمغول جميعاً واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها ، وفي العصر المملوكي زاد عدد

---

[333] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 291 ، 292

[334] (- إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس - - فقد أدي ذلك إلي ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك ، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبناءه ، ودافعوا عنه ضد كل طغيان ، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية ، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلي شكواهم ويجيبون طلباتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة ، وليس أدل علي ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها - -) كما أن (- قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوماً لجلسائه : " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري " ومن هذا المنطلق كان المماليك يقربون علماء الدين والقضاة المصريين ، حرصاً منهم علي تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني -) ، (- وكثيراً ما كان السلطان المملوكي يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم ، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام -)

[335] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 76

[336] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 76

المدارس زيادة كبيرة)[337]، وقد اهتم المماليك أيضاً اهتماماً بالغاً بالعمارة والفنون[338] ، وبعد أن استعرضنا ملخص عام للعصر المملوكي سنستعرض معاً أبرز القادة في ذلك العصر

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز :

في بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديداً في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريباً شديداً واقترب خطر المغول من مصر ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيل التتار (– كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة – – ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي339 فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار340 وناصحهم وأطمعهم في المجئ إلي العراق وأخذ بغداد – – – وصار إذا جاء خبر منهم كتمه علي الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل –)341 ، ووصل التتار إلي بغداد (–وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً ––––، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقُتِل الخليفة رفساً ، قال الذهبي : ما أظنه دُفِن ، وقُتِل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأُسِر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها –)342

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم – – – ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم :

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي – – – حزناً علي ما تم للمستعصم

دست الوزارة343 كان قبل زمانه – – – لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وعندما اقترب الخطر من مصر تم تولية قطز السلطنة سنة 1259م ، وقال (– إني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم –)344 ويقول السيوطي (––– وقدم الصاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة علي التتار ، فجمع قطز الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : " إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان

---

[337] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 292

[338] علي الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلي البطش والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة ، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية ، وقد عني سلاطين المماليك وأمرائهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشييد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد

[339] كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية

[340] باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سراً

[341] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 363

[342] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 368

[343] دست الوزارة = منصب الوزارة

[344] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122

به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبقي في بيت المال شئ وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا –)345 وتم جمع الأموال استعداداً لقتال العدو ، وأرسل هولاكو رسلاً من عنده إلي مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد (– فيا أيها الباقون أنتم بمن مضي لاحقون ، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر – – دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيرا وأميرهم أسيرا ، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون –)346 وكان قطز علي علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم علي أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة حتي في حالة الاستسلام وبالتالي كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاكو (وعلق رؤوسهم علي أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول –)347 (– وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوي العناصر المحاربة وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي ---- وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة –)348 (– وفي أول المعركة هُزِم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقي بخوذته إلي الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه " وحمل بنفسه علي العدو فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا علي عدوهم – – – غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا علي المماليك ثانية فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولي ثلاث مرات " وا إسلاماه ، يا الله انصر عبدك قطز علي التتار " فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا علي التتار حتي هزموهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه علي الأرض وقبلها وصلي ركعتين شكراً لله –)349 ، وبعد أن انتهت معركة عين جالوت بالانتصار الساحق للمسلمين علي التتار حاول ضعاف النفوس أن يوقعوا الخلاف والوحشة بين الملك المظفر سيف الدين قطز والأمير ركن الدين بيبرس وللأسف الشديد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً وضعاف النفوس موجودون في كل مكان وكل زمان تقريباً ولا يعجبهم الناجحين وتراهم يحقدون ويفسدون كل نصر أو تقدم ، ويروي الإمام السيوطي رحمه الله عن معركة عين جالوت ما يلي (– فأقبل المظفر بالجيوش وشاليشه ركن الدين بيبرس البندقداري ، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت ووقع المصاف وذلك يوم الجمعة خامس عشر رمضان فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار – – وجاء كتاب المظفر إلي دمشق بالنصر فطار الناس فرحاً – – وأحبه الخلق غاية المحبة ، وساق بيبرس وراء التتار إلي بلاد حلب وطردهم عن البلاد ووعده السلطان بحلب ، ثم رجع عن ذلك فتأثر بيبرس من ذلك وكان ذلك مبدأ الوحشة وكان المظفر عزم علي التوجه إلي حلب لينظف آثار البلاد من التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له وعمل عليه ، فصرف وجهه عن ذلك ورجع إلي

---

[345] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 370

[346] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 370

[347] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122

[348] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 122 ، 123

[349] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج2 صفحة 123

مصر وقد أدمر الشر لبيبرس وأسر ذلك إلي بعض خواصه ، فاطلع علي ذلك بيبرس ، فساروا إلي مصر وكل منهم محترس من صاحبه –)350 وهنا أصبح اثنان من الأسود في قفص واحد ولابد من مقتل أحدهم وتم القتل للأسف الشديد بعد أن استغل ضعاف النفوس عدم تعيين بيبرس والياً علي حلب فنجحوا في إقناع كل من الطرفين أن كل منهما يحاول قتل الآخر والتآمر عليه فاعتبر كل واحد منهم أن قتل الآخر هو ببساطة شديدة " دفاع مشروع عن النفس "

السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي :

تولي السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس حكم مصر سنة 1260م وتم في عهده تحقيق حلم ابن طولون والإخشيد حيث قام بيبرس باستضافة الخلافة العباسية في مصر لتصبح مصر لأول مرة في تاريخها مقر خلافة وسلطنة في وقت واحد (– حقيقة كانت القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية قبل ذلك ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصرانها وتنافسانها – – – هما الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة ، أما في العصر المملوكي فلم يكن هناك في العالم الإسلامي سوي خلافة واحدة هي خلافة القاهرة –)[351]

وكان بيبرس علي علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم في عين جالوت فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطراً صليبياً من نوع آخر وظل بيبرس يقاوم كل منهما بكافة الوسائل (– وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم علي البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلي نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي حيث انتصر علي التتار الذين تقهقروا سريعاً واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها – ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلي ميدان آخر إلي آسيا الصغرى –)352 ، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة 1277 م (– وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً عظيماً وانتقل بعد هذا النصر إلي قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش سلاجقة الروم ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخري فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخري في أنحاء آسيا الصغري سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد ، من هذه الدويلات ، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان –)353 وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار (– ولكن بيبرس لم يقدم علي مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة ، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوي الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين ، أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلي الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين –)354 واستمر بيبرس في

---

[350] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة 371

[351] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 134

[352] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138

[353] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 138 ، 139

[354] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 149

حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة[355] وكان يتزامن أحياناً القتال مع الصليبيين مع القتال علي جبهات أخري ضد المغول وغيرهم (وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائماً فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم –)[356] وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبري وهي إمارة إنطاكية ، (– وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة وظلت قروناً يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب –)[357]

السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام :

استطاع الصليبيون تكوين أربعة إمارات صليبية في الشام وهي إمارة الرها وإمارة بيت المقدس وإمارة إنطاكية والإمارة الرابعة طرابلس ثم بدأت معارك التحرير ويقول د جمال الدين الشيال : (– تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل علي أيدي أبطال الجهاد المسلمين ، فسقطت إمارة الرها علي يد عماد الدين زنكي ، وسقطت إمارة بيت المقدس علي يد صلاح الدين الأيوبي وسقطت إمارة إنطاكية علي يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان ، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخري متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية –)[358] ، وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (– وخرج علي رأس جيش ضخم حتي وصل إلي طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً ، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولي عليها قلاوون في أبريل سنة 1289م –)[359]، وكانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام وأخذ قلاوون يعد العدة لتحريرها ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولي الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسئولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية (– وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينياً في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب ، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل[360] من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة 1291 م – واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يوماً – وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر – وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة

---

[355] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 155

[356] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 156

[357] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 158

[358] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 167

[359] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 168

[360] خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدين المسلمين وليس المماليك فقط

من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون –)361

السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

تولي السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة ، كانت الأولي سنة 1293 م ، والثانية سنة 1298م ، والثالثة سنة 1309م ، وقد شيد الناصر محمد مسجداً مازال موجود حتي الآن بالقلعة ، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون ، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة ، ولم يقتصر الناصر علي تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية فحسب ، بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون ، ومن أهم هذه المباني مجري عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلي قلعة الجبل ، وتعد هذه المجري من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطي ، والتي لا تزال باقية حتي الآن ، كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين ، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون ، وبني الناصر سبيلاً ألحقه بمدرسته وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبلق في قلعة الجبل ، وقد ازداد تعلق شعب مصر بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال ، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهي عصور دولة المماليك البحرية ، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار ، وكانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها علي مصر والشام وأعلي الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط ، ويعد الناصر محمد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر ، وفي سنة 1303 تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر علي مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد فهلك معظم جيش المغول وهُزِموا ومات كثير منهم وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ وعلي إثرها مات غازان كمداً وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلي مصر بأعظم الترحيب ، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيي قاهر المغول ، وعني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتي يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع إبطال العديد من الضرائب ، كل ذلك أدي إلي توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها[362]

السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون :

يرجع سبب إدرج هذا السلطان في هذا الكتاب إلي قيامه بإنشاء جامعه أو مدرسته الموجودة حتي الآن في القاهرة تشهد بعظمة ورقي فن العمارة الإسلامية في العصر المملوكي ويعد معجزة العمارة الإسلامية في

---

[361] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة 169

[362] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة[363] فهل هو جامع أم مدرسة ؟ وعن هذا الموضوع وتحت عنوان العلم بين المسجد والمدرسة كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطي – كلية الآداب – جامعة القاهرة ما ملخصه : يقول المقريزي ما نصه : (وفي هذا الجامع عجائب من البنيان منها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع) إذاً فقد أقيمت في دور قاعة الجامع أربعة مدارس لها أربعة أواوين متقابلة بحيث تختص كل مدرسة منها بمذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة ، ومعني هذه العبارة أن المدارس أنشئت في قاعة الجامع وليس الجامع هو الذي أقيم في ساحة المدرسة حتي غدت هذه المدارس من عجائب فن البنيان في هذا الجامع ، فالجامع هو الأصل وهو الهدف وهو الأساس ولكي تعم الفائدة ويعظم الأجر والثواب أقيمت به مدارس لتعليم علوم الدين وأحكامه وشرائعه ، علي أنه ثمة مرة واحدة في كتابه المواعظ استخدم المقريزي فيها عبارة (مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل[364]) ولكن هذه العبارة وردت في تعداده لأسماء المساجد التي تقام فيها الجمعة ، ونص العبارة : (وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجداً منها جامع شيخو – جامع قانباي – جامع ألماس – جامع قوصون – جامع الصالح – مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل) ، والمقريزي هنا يضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة المساجد الجامعة وليس في قائمة المدارس وربما نعت هذه المؤسسة باسم

---

[363] هذه المدرسة تعد بحق من روائع العمارة الإسلامية فقد جمعت بين فخامة البناء وجمال الهندسة الدقيقة المتناسقة وروعة الزخرفة سواء المنقوشة منها علي الحجر أو الرخام أو الخشب ، أو تللك المحفورة علي النحاس المطعم بالذهب والفضة أو المرسومة علي الزجاج المموه بالمينا ، جاءت آية فنية في جمالها وجلالها لا مثيل لها في العمائر الإسلامية بالشرق وقد شُيدت هذه المدرسة سنة 1358م بعد أن استغرق العمل فيها حوالي عشر سنوات تكلف خلالها أموالاً طائلة ، وتبلغ مساحة المدرسة (المسجد) حوالي فدانين

[364] عن أهمية الخيول في العصر المملوكي كتب الكاتب الكبير جمال الغيطاني في كتابه الممتع ملامح القاهرة في ألف سنة ما ملخصه : نتجه إلي ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلاً طبيعياً إلي عالم رحب وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطي ، لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، وأنواع عديدة من الخيول لكنها موزعة علي ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها وأغلاها قيمة مطلوبة للسباق وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة ، والنوع الثاني تركي أو أعجمي ، وكانت تسمي الهماليج أو الأكاديش ، مرغوبة لصبرها علي السير الحثيث وسرعة المشي ، النوع الثالث مولد بين العربية والأعجمية ، إذا كان الأب أعجمياً والأم عربية قيل له هجين وهي وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الإفرنجية فهي أفشل الأنواع وأرخصها ثمناً هنا ، ولا يقبل عليها أحد ، الخيول العربية نفسها تنقسم إلي عدة أنساب ، الحجازية أشرفها ، والنجدي أيمنها والمصري أفرهها ، والغربي أنسلها ، وعندما ترد السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض علي السلطان ، وكان السلاطين مهتمين جداً باقتناء أنفس الأنواع وأنقي الأنساب – ، كان الناصر بن قلاوون شغوفاً بجلب الخيول العربية ، -- – وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس في اصطبلاته ، أما السلطان برقوق – – فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس ، كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهراً من مظاهر القوة والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكي علي دعامتين ، الفارس والفرس ، ربما كان هذا سبباً قوياً في أهمية سوق الخيل وقربه من قلعة الجبل مركز الحكم ورمز السلطة في مصر وقتئذ ، في السوق نري ألواناً عديدة ، غير أن الألوان الأساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها : الأول : اللون الأبيض وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها الفرس البوز ، ويذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن السلطان الغوري كان يخرج في المواكب ممتطياً فرس بوز أبيض الثاني : هو الأسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها أدهم والثالث : هو اللون الأحمر ، ويسمي الكميت ، واللون الرابع هو الأصفر ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان – – – وأحياناً كان بعض الفرسان يحرصون علي ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم – – – ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم علي اللون العام للفرس ، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات في جسده ، فالغرة ، أي البياض الذي يكون في وجه الفرس ، إذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل علي اليمن والبركة ، وإذا أصاب البياض خداً دون الآخر فإن الفرس يكون مكروهاً ويتشاءم به ، كذلك إن غطت عيناً دون الأخري ، فيصبح من المتوقع أن تقتل مع صاحبها ، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها ، وإن مالت إلي اليمين تدل علي الشؤم ، وإلي اليسار فإنها تدل علي المكاسب ، وإن وصلت إلي الأنف فإنها تدل علي البركة والخير وفي سنة 802هـ 1399م ، كسر الأمير تنم وسقط أسيراً ، واستفسر المؤرخ ابن تغري بردي عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ثم أسره ، فقالوا كان في فرسه شؤم ، وأشاروا إلي هذه العلاقة ، وقالوا : إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبي وفي سوق الخيل نلاحظ أن المشترين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها والتفرس له قواعد ، فلابد أن ينظر إلي الفرس في جميع حالاته خاصة أثناء الجري والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، وإذا نظر الإنسان إلي آثار قوائمه وقت جريه وقاس ما بينهما ، فإذا كانت ستة أذرع يكون فرساً سباقاً – –كما يجب أن يكون صافياً عن الصهيل فهذا دليل علي صحة الرئتين ، وعلامات أخري عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية ، نقلاً باختصار عن كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب الكبير جمال الغيطاني ، ، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الخامسة سبتمبر2007، مقتطفات من صفحة 54 إلي صفحة 56

الشهرة الذي عرفت به ، ولم يكن المقريزي هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذي أطلق علي مؤسسة السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون اسم جامع وإنما هناك مؤرخ آخر عاصر الناصر حسن وعاش أيامه هو الحسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفي سنة 779هـ – 1377م صاحب كتاب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) ومن الواضح أن ابن حبيب ألف كتابه الضخم هذا الذي يقع في ثلاثة مجلدات مخصصاً إياه للتأريخ لأسرة قلاوون ، أعني السلطان المنصور قلاوون وسلالته من الحكام حتي أيام ابن حبيب نفسه ولذا يعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً للوقوف علي أخبار تلك الحقبة ، يقول ابن حبيب ما نصه :

وفيها شرع السلطان الملك الناصر حسن أيده الله في عمارة المكان الذي أنشأه بالرميلة تحت قلعة الجبل ظاهر القاهرة المحروسة ، وهو بناء مشيد محكم عظيم الشأن مرفوع القواعد ، عالي الأركان ، متسع الفناء يشتمل علي جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة ، وفيه المنبر ، وبه تقام الجمعة ، وعلي كتفي الأيوان الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلي مدرستين وعلي كتفي الأيوان الغربي مثل ذلك ، وعلي كتفي الأيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن ، الأيمن منهما مجاز إلي الجامع المذكور ، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة ، وعلي بابه سبيل

في جامع السلطان قم يا من أتي مصرا وطف سعياً بذياك الحرم
وانظر بناء ينجلي للناس في ثوب الشباب واطرح ذكر الهرم[365]

[365] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 2000

وقد تولي السلطان حسن حكم مصر سنة 1347م ومرة ثانية سنة 1354م (وأثناء فترة حكم السلطان حسن نُكِبت مصر بالطاعون الذي أزهق الأرواح حتي بلغ عدد الموتي في شهرين حوالي تسعمائة ألف ، وقلت المزروعات لموت الفلاحين فانتشر القحط والجوع في البلاد من جديد ، وفتك الطاعون بالحيوانات أيضاً فكثيراً ما شوهدت الخيول والجمال والحمير والطيور وهي ملقاة في البراري والطرقات وساد الحزن جميع أرجاء البلاد – – – – وخلت كثير من الديار)[366]

السلطان الظاهر برقوق :

تولي السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة 1382م ، وكان محباً للفروسية ميالاً للعب بالرمح ، ولقد ألغي السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة ، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم علي الإتجار مع مصر

وقد اتسع ملك مصر في عهده ، فقد خطب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك ، فخطب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام والحجاز واليمن وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن، وعندما توفي الظاهر برقوق دفن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين ، وكان قد أوصي أن يبني لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه ، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية ، وتعتبر مدرسة (مسجد) وخانقاه السلطان برقوق أولي المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون وتطل علي شارع المعز لدين الله في (بين القصرين) أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس المملوكية ، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة علي ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات ، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخراً أن صورته استعملت رمزاً لأحد العملات الورقية في مصر ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه ، واستغرق بناؤه اثنتي عشرة سنة ، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجداً جامعاً وعلي عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة ولقد عاصر أيضاً جلوس السلطان الظاهر برقوق علي عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلي مصر حيث وصل إلي الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلي مصر في نسيج حياتها يدرس في الجامع الأزهر ويتولي رئاسة القضاء الحنفي وقد زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة 784 هـ (نوفمبر 1382م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال : فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، – – ونحن

[366] نقلاً عن كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان صفحة 318

لهذا العهد نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت)[367]

السلطان الأشرف إينال :

هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر بويع بالسلطنة في يوم الاثنين 8 ربيع أول عام 857 هـ. الموافق 19 مارس 1453م وكانت فترة حكمة لمصر والدولة المملوكية حوالي 8 سنوات ويقال أن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: «أى» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع أى أن اسمه يعنى «شعاع القمر« وكان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام 836 هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام 840 هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام 849 هـ. وكان السلطان إينال ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دما قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلي الأشرف إينال : (– – إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالي أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (29) سورة التوبة ، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله علي النار " فهممنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ } (123) سورة التوبة ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً – – فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولي هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } (45)، (46) سورة القمر)[368] وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحاً عظيماً بهذا الفتح كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها

وقام السلطان إينال بالرد علي رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

---

[367] نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان ، وكتاب (مصر في العصور الوسطي – الأوضاع السياسية والحضارية) (د محمود الحويري)

[368] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة 149 ، 150

كذا فليكن في الله جل العزايم – – – وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها – – – إذا ما تهدت موجه المتـلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه – – – علي الكفر أيام الزمان المواسم[369]

وكان فتح القسطنطينية في 20 جمادى الأول سنة 857 هجرياً (29 مايو 1453 ميلادياً) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمي بالدولة البيزنطية[370]

السلطان الأشرف قايتباي :

تولي السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة 1468 م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وفي عهده وصل إلي القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد ، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة ، فكانت هذه الحركة سبباً لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية ، فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم ، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة 1484 م وقد انتصر فيها الأمراء المماليك ، وقد وقعت معركة أخري سنة 1486 م حيث التقي جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصي الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة ، حتي قيل إن عدة من قتل من العثمانيين يربو علي أربعين ألفاً وقبض علي قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولي علي الأعلام العثمانية ، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخري بين الجانبين سنة 1487 م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضاً حليف الجيش المصري ، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني علي عقد صلح بين الملكين علي أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلي مصر إشارة إلي ردها إلي ملكية مصر ،علي أن يطلق قايتباي من عنده من الأسري العثمانيين ، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة 1492م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخري وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول

وتعتبر قلعة قايتباي في الإسكندرية من أهم المنشآت المعمارية للملك الأشرف قايتباي ، وتم بناء هذه القلعة علي أساس منارة الإسكندرية القديمة ، وقد أنشأها سنة 1479 م واشتملت علي مسجد بقيت منارته إلي ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة 1882 أسوأ الأثر ، وكانت أحداث ضرب الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها وبقيت متخربة إلي أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها ، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي وهو من

---

[369] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)صفحة 151

[370] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 274

عصر دولة المماليك البرجية ، ولد في سنة 1423 م ، وبويع بالسلطنة سنة 1468 م ، وقد ظل ملكاً لمصر نحو 29 سنة ، وأقام كثيراً من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه ، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد ، وقد توفي في سنة 1496 م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثراً إسلامياً ما بين إنشاء وتجديد ، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية ، وترجع أهميتها إلي جمال تنسيق المجموعة مع بعضها ، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة ، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دوراً هاماً في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم

وقد قام المؤرخ ابن اياس الحنفي بوصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج[371] كما ورد بكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور فكتب ما يلي : وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلي مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود ، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين ، ، وأنه تصدق علي فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعاً وخضوعاً إلي الغاية ، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل لاسنباي المبشر جملة خلع ، ومالا له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة ، وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة ، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك ، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة ، واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتي ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جداً ،

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (1480م) : فيها ، في المحرم بعث السلطان نجابا إلي الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلي المدينة الشريفة ، علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبي صلي الله عليه وسلم وأنعم علي الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة ، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء ، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلي هناك ونصبوا الخيام ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلي البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلي ملاقاة السلطان ، فلما وصلوا إلي البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتي وصل إلي الوطاق الذي بالمطرية ، وكان له هناك موكب حافل ، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جداً وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنئوه بقدومه

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك علي رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا الموكب العظيم ، وطلب طلبا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب

[371] تم إدراج هذا الوصف لعودة السلطان من الحج لما يحتويه من تفاصيل تلقي الضوء علي جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر

وكان له يوم مشهود إلي أن طلع إلي القلعة ، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلي الحوش ، ونثرت علي رأسه خفائف الذهب والفضة وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران ، فلما دخل السلطان إلي الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة ، ثم أن السلطان خلع علي من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلي بيوتهم وانفض ذلك الموكب ، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك ، وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان ،،، من حجه المقبول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف ،،، الراقي سماء الحسن والاحسان
فهناؤنا ببقائه ، في نعمة ،،، وسلامة فرض علي الأعيان
لما نوي حجا ولبي محرما ،،، عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش في أبياتها والدوح في ،،، أنباتها والطير في الطيران
ثم الصلاة علي النبي المصطفي ،،، عدد الرمال بجملة الكثبان

فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة الهدية علي الأمراء ، فابتدأ بالأتابكي أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة ، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضاً تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك

ومن المواقف التاريخية المؤثرة التي حدثت في ذلك العصر محاولة إنقاذ الأندلس بواسطة الدولة المملوكية وقد وردت هذه المحاولة في كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان حيث كتب ما يلي : قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن ، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام في الأندلس ، ولقد كانت أيضاً آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية ، – – – في سنة 1489 كانت جيوش أسبانيا النصرانية – أو جيوش قشتالة وأراجون – تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تنحدر بسرعة إلي هاوية الإنحلال والفناء – – – – ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت قشتالة وأراجون علي يدى فرناندو وإيسابيلا ، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس ، فتقدمت الجيوش المتحدة علي مملكة غرناطة ، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلي شطرين يتربص كل منهما بالآخر ، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب علي الإسلام قبل ذلك بأعوام ، – – – وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة ، وكان أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلي دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعي إلي غوثهم ، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تتري منذ أعوام علي فاس والقاهرة وقسطنطينية ، وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري ، ولم تكن أحوال مصر علي ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي ، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك ، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت

إلي أدائها – – – ووصلت سفارة الأندلس إلي مصر في أواخر سنة 892هـ (نوفمبر سنة1487م) ، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي :

وفي ذي القعدة سنة 892هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلي يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه علي قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا علي أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم ،-- – ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس ، والسعي إلي إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية ، إلي ميدان حرب ناء كالأندلس ، – – ذلك أن سلطان مصر الأشرف ، أجاب علي سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلي البابا وملوك النصرانية ، ولكنه لم يعهد بها إلي سفراء مسلمين ، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصاري ، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد إليهما بكتب إلي البابا وإلي ملك نابولي ، وإلي فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون ،

وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصاري ، علي ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ، وعلي توالي الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم ، ونهب أملاكهم ، في حين أن رعاياه النصاري في مصر وفي بيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين علي أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم ، ولهذا فهو يطلب إلي ملكي قشتالة وأراجون ، الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم التعرض إليهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلي البابا وملك نابلي أن يتدخلا لدي ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم ،

هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصاري سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس ، ويمنع دخول النصاري كافة إلي الأراضي المقدسة[372] ،

<u>السلطان الأشرف قنصوة الغوري :</u>

تولي السلطان الأشرف قنصوة الغوري حكم مصر سنة 1501م وكان يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر علي حركة التجارة العالمية إلا أنها قد تأثرت إلي حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وكانت القاهرة من أرقي عواصم العالم فنا وحضارة وعلماً وعمارة ، وقد كتب المؤرخ الكبير ابن اياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي :وأما ما أنشأ من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي ، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين ، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ

---

[372] كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان 1896-1986 – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 1998 – مقتطفات من صفحة 202 وما بعدها

جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة ، وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش ، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود بالحجر ، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم ، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنياً بالطوب اللبن ، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر علي تلك البسطة التي كانت بها ، وأنشأ بها المقعد المطل علي البحر ، وجدد عمارة قاعة المقياس ، والجامع الذي هناك ، وجدد عمارة قنطرة بني وائل ، والقنطرة الجديدة ، وقنطرة الحاجب ، وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر وجدد عمارة أبراج الإسكندرية ، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج علي بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة ، وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج ، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا علي ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج جاء هذا السور من أحسن المباني هناك ، وأنشأ علي شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين ، وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئا تاما للسلطنة ، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون[373]

والجدير بالذكر أن في ذلك العصر قد حدث صراع مرير بين الدولة المملوكية والبرتغاليين لتأمين التجارة في البحر الأحمر وقد (بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلي البحار الشرقية حيث عمل كل طرف علي الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق علي العبث وإتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر ، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة علي موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم علي التجار وقد جابوا حول بندر جدة وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة علي أساس القضاء علي كل نفوذ تجاري للتجار العرب في –البحار– الشرقية ، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل علي طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلي هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة 1502 بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل علي مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين وفعلاً تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب

وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلي المياه الشرقية البوكيرك سنة 1506 الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض علي البحار العربية ومداخلها مما أضر ضرراً فادحاً باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعي جادة في تلك الآونة علي مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان

---

[373] نقلا عن كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة 1996 صفحة 56 ،57

الغوري علي النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك ، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك علي تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله إدراكاً منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في 6 جمادي الآخرة سنة 911هـ – 4نوفمبر سنة 1505م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند علي أن تعمل في نفس الوقت علي تحصين ميناء جدة استعداداً لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات ، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلاً بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلي موانئ اليمن الواقعة علي البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلي مخا فعدن حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلي الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلي "ديو" من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية علي القوي البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلي مداخل البحر الأحمر)[374] ، ولم تستمر الدولة المملوكية لاستكمال هذا الصراع ولكن حلت محلها الدولة العثمانية وتولت مسئولية العالم الإسلامي وانتهت فترة حكم السلطان الغوري بل انتهت حياته كلها في معركة مرج دابق وإليك وصف المؤرخ ابن اياس الحنفي لمعركة مرج دابق التي وقعت في 24 أغسطس سنة 1516م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول : (في يوم الخميس رابع عشره ورد علي السلطان مطالعة375 من عند سيباي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان من مصر إلي البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية – – فلم يلتفت السلطان إلي كلامه واستمر باقياً علي حركة السفر إلي حلب)376 ، (وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان علي المماليك بقية النفقة – – وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة علي المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء علي السلطان)377

(وفي يوم السبت سادس عشر شعبان 922 هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلي حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلي مرج دابق فأقام به إلي يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس

---

[374] من كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم – من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم 38 – الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة 1990 صفحة 121 وما بعدها

[375] مطالعة = رسالة مكتوبة

[376] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة 19

[377] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة 20

مستمر فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان – – فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق – – فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولاً ويااليت لو تم ذلك ، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباي[378] بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة – – ويقال إن خاير بك كان موالساً علي السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان علي السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة وكان ذلك خذلاناً من الله تعالي للمماليك حتي نفذ القضاء والقدر – – وانعقد بين العسكرين غباراً حتي صار لا يري بعضهم بعضاً وكان نهار غضب من الله تعالي قد انصب علي المماليك وغلت أيديهم عن القتال)[379] (وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلي بعد الظهر وانتهي الحال علي أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصي عدده)[380] ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم (هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد ، ويروي أن الغوري عندما رأي جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتاً وداسته الخيل)[381] والغريب أنه لم يعثر له علي جثة بعد المعركة ، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد ، وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة

السلطان الأشرف طومان باي :

تولي السلطان الأشرف طومان باي حكم مصر سنة 1516م بعد مقتل السلطان الغوري وقد أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطاناً عالي الهمة وقليل الأذى للرعية ، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائباً له في مصر قبل أن يتجه إلي لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا ، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة ،(ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط)[382] ، (وحين تولي طومان باي السلطنة كانت البلاد في

---

[378] كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أحرج مواقف المعركة

[379] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 35 ، 36

[380] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 38

[381] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة 280

[382] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 41

أقصي درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق ، نتيجة لعوامل متعددة ، إذ قد استشري الفساد في كيان الدولة المملوكية – – وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)383

وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أي سبيل حتي لا تحدث في أيامه مظلمة أبداً)384

وكتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب)385 ، (زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلي الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادي السلطان للعسكر بالخروج إلي قتال عسكر ابن عثمان – – فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربياً وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقي الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق – – حتي انكسر عسكر مصر وولي مدبراً ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي – – وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية)386 ، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصراً

وكتب ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي – يقع – مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم – – فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل – – وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال :)387

قليل الحظ ليس له دواء – – – ولو كان المسيح له طبيب

(– وكان السلطان ، كلما رام أن ينتصر علي ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني)388

إذا لم يكن عون من الله للفتي – – – فأول ما يجني عليه اجتهاده

فكان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلي بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي فأمر السلطان سليم الأول بشنقه علي باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق

(– فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدي لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده

---

[383] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 53

[384] طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة 59

[385] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 80 ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر ويبدو أن ابن اياس الحنفي كان شاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

[386] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 82

[387] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 92

[388] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة 106

بنفسه ، وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً من البلدان وآخر الأمر شنق علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي الباب حتي جافت رائحته – – وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن)389

ويري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر ، ولقد ماتت قروناً طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلي ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقي علي المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته)390

---

[389] **المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة 111**

[390] **مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة 67**